

مناقشة ورد

« الرواية العربية »

دفاع عن أصالتها وامتدادها

حمل الى صديق عددا من أعداد (الفصلية) التي تصدر عن المركز الثقافى الاسلامى بلندن باللغة الانجليزية بعنوان (الفصلية الاسلامية) وإشار الى بحث بها بعنوان (ترجمة الأعمال الروائية الغربية الى العربية) بقلم كاتب دارس فاضل هو الأستاذ (متى موسى) . . وعلى الرغم من أن موضوع الترجمة مجال لبحث شيق ولا شك الا أن الذى أراد صديقى أن يلفت نظرى اليه هو ما تعرض له كاتب الدراسة من مناقشة طويلة حول الآراء التي تردت فى مدى تأثير الأعمال الروائية العربية المعاصرة بالترجمة تأثيرا مباشرا وكاملا . . وفى هذا المجال يتناول كاتب الدراسة الأستاذ (متى موسى) كتابى (فى الرواية العربية) بالرد والمناقشة ، مع تعرضه لدراسات المرحوم الأستاذ محمود تيمور عن القصة العربية والأستاذ يحيى حتى عن القصة العربية الحديثة وانتمائها الى الترجمة انتماءا مباشرا . والدارس يقدم لدراسته عن الترجمة بمسح نقدى للآراء التي تعرضت لأصول الرواية العربية المعاصرة ، وواضح من هذا التعرض أنه يميل الى الأخذ بالرأى القائل باعتبار الترجمة عن الأدب

الغربي هي الأصل الأول للأعمال القصصية العربية المعاصرة مخالفا بهذا كل من سبقوه بمحاولة ارجاع القصة العربية المعاصرة الى تأثيرات بتراتها العربي القصصى القديم . وحقيقة الأمر أننى لا أعرف الأستاذ (متى موسى) ولكننى أشهد له بتقصى البحث فى التقديم ثم بعد ذلك فى العرض تقصيا دعوبا وجادا ، وان كنت أخذ عليه ماأخذته وأخذه على الكثيرين من دارسى تاريخ الرواية العربية من داء الخضوع لأحكام مسبقة، غالبا هي أحكام المستشرقين ، والاستسلام لها فى طواعية ويسر ، والاسراع الى تكذيب الناقد العربى أو الدارس العربى اذا ما تعارض رايه مع ما أجمع عليه المستشرقون وتمشى مع سهولة البحث ويسر تناوله ، وفى حالة الأستاذ متى بالذات فانه وجد لزاما عليه لكى يستطيع ان يضى فى جهده الكبير فى دراسة ترجمة الآثار الروائية الغربية وخاصة الانجليزية والفرنسية منها فى اثبات أن موضوع دراسته هذه هو صاحب الأثر الأول على ما يحفل به أدبنا العربى الحديث من آثار روائية وقصصية ، وبهذا يصبح للجهد المبذول فى البحث مايرره، ويصبح موضوع البحث صاحب قيمة عظمى ولافتة . وخاصة وقد مهد هذا لهدفه من البحث برسم صورة لمصر للفترة التالية للاحتلال الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ وما ساد الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية من انحطاط وصل بها الى آخر درجات التأخر والتخلف فى ظلال الجهل والفوضى والرشوة التى سادت الحياة المصرية تحت الحكم العثمانى الواهى وطموح المماليك الشره ، ويؤكد بعد هذا ان ملامح النور قد ظهرت فى البلاد المصرية

والسورية (ويعنى بالسورية هنا الشام كلها) على يد البعثات التبشيرية والجماعات الدينية التى تكونت بنفوذ هذه الجمعيات فى البلاد . وينشط أعضاء هذه الجمعيات فى البدء بالقيام بعمليات الترجمة عندما يبدأ محمد على حملته الإصلاحية لإنشاء المدارس المتخصصة لخدمة جيشه الكبير .

وموضوع الترجمة وكيف بدأت؟ ولماذا؟ ومن عمدتها؟ ليس فى موضوعى فى شىء ، وان كان الجهد الذى بذل فيه شيقا وموضوعيا الى حد كبير ، ولكن الذى يلفت النظر هو ما ساقه من مناقشة لاثبات فضل عملية الترجمة الكامل على عملية الإبداع الروائى العربى المعاصر . فأيا كانت أسباب الدارس ودوافعه فان تعرية أمة من ترادف تيارها الفكرى وتتابعه ، وتكامل حاضرها مع تراثها شىء ينبغى أن يعالج بالكثير من الشك والكثير جدا من الحذر والروية .

وقد اعتمد كاتب البحث على آراء لبعض الكتاب والدارسين تؤكد موقفه ، كما اعتمد على ما كان مترسبا فى ذهن مجمل الدارسين من آراء حملها الجيل الأول من الدارسين العرب متأثرين بآراء أساتذتهم من المستشرقين ، وينقل فى بحثه قول المستشرق (جب) فى كتابه دراسات فى حضارة الإسلام ، ان الكتاب العرب ، وجدوا الميدان خاليا من آثار أدبية مشابهة للأعمال الروائية التى أرادوا إبداع شبيهاتها ، وقد اضطروا تحت ضغط الحاجة الى اللجوء الى المصدر الذى يلبي حاجاتهم

بترجمة الروايات الفرنسية والانجليزية بدلا من محاولة بناء أدب روائى جديد بها فى ذلك من خلق شكل أدبى جديد خلقنا تماما . .
وقول هاميلتون جب هذا يكاد يكون تعبيرا عن صرخة ميخائيل نعيمة التى ظهرت فى « الغربال » والتى ترجمها الأستاذ منى فى انجليزية رتيقة ورائعة والتى تقول : « دعونا نترجم فاذا المتسول يتسول عندما لا يستطيع أن يعول نفسه والظمان يتسول الماء من جاره عندما يجف بئر . . نحن فقراء مع أننا نتشدد بثروتنا المهجورة . فلماذا اذن لا نشبع حاجتنا من منابع خيراتنا التى تتدفق بالثروة المتاحة لنا » . . ثم يقول الأستاذ نعيمة . . « اننا نفتقر الى العدد الملائم من الأتلام والعقول لسد حاجتنا الثقافية اذن دعونا نترجم » . .

وصرخة ميخائيل نعيمة وقول هاميلتون جب وكذلك تقارير يحى حتى التى اعتمد عليها الأستاذ متى موسى فى دراسته تمثل حاجة ملحة ضيقة فى مرحلة من المراحل أدت الى انتشار الترجمة لكسر المعبر الى الحضارة ككل . . ولكنها لا تثبت قضية أبدا . . نك القضية التى تحاول أن ترجع أصولنا الروائية المعاصرة الى النقل والترجمة . والا كان معنى هذا أن كل ما اتصل بيننا وبين تراثنا الفكرى العربى والاسلامى هو الدين والدراسات الدينية وحسب . وهذا تعسف كبير . فقد ترجمنا العلوم والرياضة والطب ونظريات الفن والمعمار والبحرية وكل شىء لنعبر ماوضعنا فيه ظروف الاحتمال والنخلف ولنواصل مسيرتنا الحضارية القديمة .

ولكن الذى لا شك فيه ان مرحلة العودة الى الحضارة كانت مجرد مرحلة لم تنسنا على الاطلاق جذورنا العلمية والثقافية ، وسرعان ما اكتشفنا فى كثير من العلوم والفنون أن الأدوات العلمية والفكرية التى نستعملها فى انبهار ما هى فى الحقيقة الا تطوير لبضاعة كانت لنا وردت الينا . ولهذا فقد اتجهت دراساتنا بسرعة الى وصل حاضرنا المتطور بماضينا الثرى لناخذ من منابعنا ولتكون اضافتنا الجديدة اكثر أصالة وعمقا وأشد ارتباطا بتكويننا العقلى وميزاجنا الفكرى والحضارى . ولم يقل أحد فى ميدان من ميادين العلم والفلسفة والفكر أن حركتنا العلمية المعاصرة وكذلك حركتنا الفكرية وليدة الترجمة والنقل وحدهما وإنما هى عند الجميع وليدة هذا بالاضافة الى ما ورثناه من علم وفكر تكشف عنه الدراسات المتتالية وتؤكدده وتعمقه .

واعتمادنا على الترجمة فى ميدان القصة لا يعنى الا أننا كنا نلمس معبرا الى الحضارة فى ميدان الأدب ، وكفى الترجمة انها وفرت لنا هذا المعبر ، أما الانتاج فشئ آخر مرة اخرى . . وما حاولنا اثباته فى كتاب (فى الرواية العربية) الذى صدر عام ١٩٥٩ . هو أن الانسان العربى عرف القصص طوال تاريخه ، وانها جزء من عطائه الأدبى لم يتوقف لحظة واحدة ، حقيقة أننا اطلعنا على القصص الغربى ترجمة ونقلنا بل وتقليدا فى بعض الأحيان فى مطلع حركتنا الأدبية المعاصرة ولكن الحقيقة أيضا أننا اطلعنا فى العصر العباسى والأموى على التراث العالمى ومقتذاك فى العلم وفى القصة والفن وفى القصص على السواء . وأننا ترجمنا ونقلنا

وقلدنا في بعض الأحيان مورثات الحضارة العالمية في كلية ودمنة
واسمار اللبالي وغيرها ، ولكننا حين نقلنا بعد حين قصة الحيوان
في كلية وحكايات الفروسية في ألف ليلة رفضنا التصورات اليونانية
للملاحم والتمثليات من حيث البناء الشكلى واكتفينا بمعرفتها اذ
لم نجد فيها وفاء بحاجة لنا ، فلم نقلدها أو نحذو حذوها في الانتاج
الفكرى العربى الرسمى أو الشعبى على السواء . . . وحين اتجه
القصاص العربى الى الملاحم النثرية في عنقرة وذات الهمة وغيرها
كان يطوع شكل الملاحم اليونانية لما يريد هو فخرج بشكل آخر
مختلف تماما ومتغير تماما — وهذا ما نقول أنه حدث بالنسبة
لنهضتنا المعاصرة ، فقد ترجمنا ونقلنا وقلدنا ، ولكن حين انتهت
مرحلة الافاتة من الاغفاء وابتدأ ابداعنا القصصى دخل فيه
بالتأكيد وعلى القطع كل موروثنا القصصى ، واثريه لا شك
ما حمله لنا تراثنا من اشكال فنية قصصية سابقة .

وهذه القضية قديمة وقد اثارها كتاب (في الرواية العربية)
في اواخر عام ١٩٥٩ ، ومن الغريب أن نجد الأستاذ (متى موسى)
يعاود مناقشتها هنا مرة اخرى وفى بحثه بالانجليزية ليرفض كل
ما هضمته الحياة الأدبية العربية هذه السنوات كلها وما اقتنعت
به وما غيرت به من مفاهيمها ودراساتها ، وحين صدر هذا
الكتاب اثار زوبعة نقدية رددنا عليها في حينها ، ونبهننا الى خطورة
المسلمات المنتولة عن المستشرقين في مثل قول المرحوم الأستاذ
أحمد امين :

يقول أوليرى : أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف
« أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر فى شعر العرب لا يرى
فيه اثرا للشعر القصصى ولا التمثلى ، ولا يرى الملاحم الطويلة
التي تشيد بذكر مفاخر الأمة كاليأذة هوميروس وشاهنامة
الفردوسى ، ثم هم فى عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب فى
تأليف الروايات ونحو ذلك . ونحن مع اعتقادنا قصور العرب فى
هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال
الأممى الذى لا مظهر له . فالفخر والحماسة والغزل والوصف
والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال والعرب
قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الأنظار وإن كان الابتكار
فيه قليلا) .

هذه الفقرة وردت كاملة فى كتاب فجر الاسلام للمرحوم
الأستاذ أحمد أمين ، والكتاب يعتبر واحدا من أمهات الكتب فى دراسة
تاريخ أدبنا العربى ، ورغم أن طبعة هذا الكتاب الأولى صدرت
سنة ١٩٢٨ إلا أن دارسى الأدب العربى يعرفون أن هذا الكتاب
بالتواتر كان المرجع الأساسى للكثير من الدراسات التى تعرضت
للأدب العربى بخاصة والفكر العربى بعامة ، بل والدراسات
الجامعية منها بالذات . وهذا الموقف الذى يقفه أحمد أمين يسير
فيه وراء المستشرقين أمثال أوليرى وورينان ومرجوليوث وغيرهم ممن
يسمون العرب بصفة المادية وضعف الخيال بل ويقررون أن العرب
لا يعرفون المعنويات ولا قيمة لها عندهم . ولسنا نشك لحظة
واحدة فى أن هذه الأحكام لم تصدر عن الرغبة العلمية الخالصة

لوجه الله والعلم، بل لعلها صدرت عن هوى كشفت عنه الأيام يريد أن يقعد بالعرب عند حد معلوم من ارتياد الفكر والثقافة ، ويصبح هذا الحد مباحا طالما بعد عن الابتكار والخلق ، وطالما سلم الأمم الغرب بالتفوق والغلبة ، ومن قديم قالوا أننا بلد زراعى ، وحديثا يعتبرون أرضنا منجما بكرا للطاقة يستنزف لتقدمهم الحضارى وحدهم .

وحين تفجأنا هذه التقارير الظالمة المتجنية ، وحين تفجعنا هذه الروح المستسلمة المقلدة التى يعالج بها باحثونا ما قرر الغرباء المفرضون ، نتهم فى نظرتنا العلمية واخلاصنا للحققة ، ونوصف بالتهور ، وكأنما البحث العلمى أمر مقصور على الأيدى المستسلمة التى تتجهد أمام المسلمات الخاطئة ، وتتقف مسلمة أمام ما قرره الأعراب وان كان فيه من التجنى والامتنات ما يفقد أشد العلماء هدوءا ووقارا وحكمة ، كل ما علمته اياه الأيام من تأن واتزان ..

لسنا فى واقع الأمر مجرد متحمسين حين نرد ظلما وقع على فكرنا العربى لا يقره عقل ولا منطق ، كما لا يقره البحث العلمى الحر ولا الحقائق التاريخية التى سلمت من التزييف والتحريف والتشويه .. وحين أراد الأستاذ أحمد أمين أن يدفع قول (أوليرى) وضع أمامه الصور الأدبية التى كانت أصلا فى الاتهام فتحدث عن الفخر والهجاء .. الخ .. وما هذه الأضراب من القول الا السبب الحقيقى الذى يستند اليه أوليرى وغيره من

المستشرقين في اتهامنا بالعجز في الخيال والقصور في التعبير ،
فكانه دفع التهمة بإثباتها مسلما بخلو ادبنا من صور الابداع
الحقيقي في الرواية والملحمة .. وعجب ان يتفوق اليونان في
الشمال والفرس في الشرق والهنود في الجنوب ويظل العرب
وحدهم القاصرين العاجزين وكأنما تعمدوا ان يكونوا اقل الأمم
حظا واكثرهم تخلفا .. ليس هذا منطقيًا ولا طبيعيًا وليس
التسليم به وقارا علميا ، وانما هو قصور في البحث وعجز في
الأداة ..

والأعجب من هذا اننا حين تقدمنا في كتاب (في الرواية
العربية) لناقش هذه المسئلة المهلهلة ، ولنورد نماذج روائية
بالمثلول العام عرفها العرب قبل الاسلام بحقب وحقب ، محلين
لها تحليلا يستخرج المضامين الانسانية العامة التي تعالجها
والتي تثبت قيمتها الفنية طلع علينا المرخوم الدكتور محمد مندور
بحديث عن القصة الفنية وأصولها التي يجب ان تتوافر فيها
حسب مقررات النقد الأدبي الحديث ، وطلع علينا باحثون
آخرون ، بتعريفات للنادرة والحكاية والقصة .. ولم يسأل
أحد أصحاب الشاهنامه والالياذة عن هذه الأصول ، ولم يحاول
أحد ان يخضعها لتلك التقسيمات ، وانما احترمت في حد ذاتها
ودرست على أساس أنها عمل له كيانه وأصوله وسميت
بالملاحم ، واعتبرت لونا فنيا قائما بذاته تستخرج من نماذجه
النأجحة أصوله الفنية وقواعده .. كما لم يسأل أحد صاحب
كيخوته ولا صاحب الديكاميرون عن الأصول الفنية للرواية

والقصة ، ولم يقف أحد طويلا ليناقتش: هل دون كيخوته رواية تخضع للأصول النقدية للرواية أم لا . وانما استقبلت بمنتهى الاحترام واعتبرت أعمالا قصصية تمهد لظهور الفن القصصي المتكامل وتطوره ، وترسم خطوة في الطريق الذى قطعه المنتجون والدارسون جميعا لهذا الفن . . ولم يتهم أحد العقليّة الغريبة بالقصور ولا المادية لأنها لم تعرف فن القصة كما حدده الدكتور مندور ، بل اتجه الباحث بدلا من هذا الى درس تراثها فقدره وعرف له مكانه واحترامه ، واعتبره تمهيدا طبيعيا لما بعده . .

ولكننا هنا فقط الذين نتعرض دائما للنظرية المزدرية التى تستكثر علينا ما هو حق طبيعى لكل أمة ولكل شعب . . فحينما قدمنا نماذج من الأعمال الروائية بالمدلول العام من عصور الاسلام وما قبل الاسلام انبرى أكثر من دارس يسأل عن نوع هذه القصص أهى رواية أم قصة قصيرة أم نادرة أم ماذا . . ؟ ومادامت هذه النماذج لا تخضع لواحد من هذه القوالب التى تعلمناها فى المدارس الثانوية فهى ليست فنا وليست بشيء ، وليس ما نقدمه ببحث مادام لم يحترم معلومات المرحلة الثانوية فيقدم لها ما يرضيها ويتمشى مع مسلماتها . . أما الدكتور المرحوم مندور فقد تفضل وألقى علينا درسا فى الفرق بين الرومان والكونت والنوفيل وهى الاصطلاحات التى تحددت فى القرن التاسع عشر ذاكرا أن الفن القصصى لم تكتمل مقوماته الا فى هذا القرن . . وزاد المرحوم الدكتور طه حسين فلفت الدكتور

مندور الى أن الغربيين قد بدأوا يعرفون صورا من هذا الفن منذ بدء عصر النهضة أى منذ دون كيخوته لسيرفانتس ثم ما تلاه من قصص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ويقول الأستاذ متى موسى فى بحثه المنشور بالانجليزية منذ شهر فى (الفصلية الاسلامية) :

« لقد أصر فاروق خورشيد على أن الفن الروائى والقصصى ليس جديدا على الاطلاق بالنسبة للعرب ولم يكن من بين الفنون التى استعارها العرب المحدثون تماما من الغرب فى بداية نهضتهم الثقافية المعاصرة فى أواسط القرن التاسع عشر عبر حركة الترجمة ، وقد حاول أن يعضد أدلته على هذا تعصيذا حماسيا ولكنه ليس يقينا بأن قدم نموذج تتمثل فى قصة مضاض ومى من كتاب التيجان لوهب بن منبه وهو نموذج يقوم على موتيفة تعتبر عالمية اذ هى شبيهة بالموتيفة التى قام عليها عمل شكسبير فى روميو وجولييت وبرناردين دى سانت بيير فى بول وفرجينى» .

ويستطرد قائلا : « الا أن نقطة الضعف الأساسية فى نظرة خورشيد هى خلطه الواضح بين الحكاية أو الرومانس الموجودة فى الحكايات الموجودة قبل الاسلام أو الاسلامية والتى تتمثل فى الف ليلة وبين ملامح القصة والرواية كما نعرفها اليوم ، ولا ينكر أحد أن العرب كغيرهم من الشعوب عرفوا القصص والحكى ولكن احدا لا يمكن أن يقول أن قصصهم تشابه القصة كما نعرفها اليوم . ومن المؤسف أن خورشيد لم يحاول أولا أن

يوضح لنفسه تصوره للرواية اذ ان كتابه يبذل جهدا ضخما في اثبات مسلمة واضحة لا شك فيها .

وهذا الذى يقرره الأستاذ متى موسى لو كان واضحا كل هذا الوضوح ما احتاج منه الى مناقشة يستهل بها بحثه الذى نشير اليه وتستغرقه فترة طويلة من البحث ويجد من الضروري ان ينتفضه بأدلته وشواهدة قبل ان يستمر فى دراسته حول حركة الترجمة الروائية واثرها على الأدب المعاصر . . فالواقع ان القضية لم تكن قضية اثبات وجود الشكل الأدبى بقدر ما كانت قضية اثبات وجود الفن الروائى نفسه وهذه القضية كانت تحتاج الى اثبات ، والى اثبات مصر ومتممس ، فما كنا ندرس فى أدبنا العربى فى مناهج المراحل الأولى أو حتى فى مناهج الدراسة الأدبية المتخصصة سوى الشعر وأغراضه وسوى النثر بصفته إما خطابة وإما رسائل ، أما القصص فقد أغفلها أصحاب النقد من المناهج لما سبق عندهم من الآراء مثبتة بأقوال أولبرى وجب ورينان ومرجوليوث وغيرهم . . وساعتها كان لابد من اثاره القضية برمتها ، وساعتها دارت المناقشات العنيفة وتصدى الكثيرون لها كما يتصدى الآن الأستاذ متى موسى وتقدمت مترددا لأهمس حقيقة صغيرة ولكنها زاهية ناصعة ، تلك هى ان الأدب العربى قد عرف صورة متكاملة من القصة قبل ذلك بكثير اى فى القرن الرابع الهجرى فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين على الأكثر حين عاش الناس فى وطننا

العربى على متعة التحلق حول راوى قصة عنتره ابن شداد التى أخرجها يوسف بن اسماعيل كاتب العزيز بالله الفاطمى، وعلى غيرها مما سبقتها أو تلتها من أمثال قصص الف ليلة وسير الظاهر وسيف وذات الهمة . . وهذه الأعمال لا تظل عند النظر المنصف، وفى ميزان النقد النزيه عن دون كيخوته أو غيرها ، وتتميز كلها بوجود الحكمة القصصية والدراسة التحليلية لنفوس الأبطال ، وتعقد الأحداث وتشابكها ، مع مساواتها لها فى وجود المضمون الانسانى العام ، والأهداف الاجتماعية والسياسية الظاهرة . . ولو أننى لم أشك كثيرا فى أن أساتذتنا الدارسين لن يتقبلوا هذا الراى ، فهم قد درسوا من العمليين دون كيخوته فقط ، أما عنتره وغيرها فما كنت أحس إلا أنهم القوا عليه الأحكام القاء دون أن تكون تحت أيديهم الدراسة الواعية التى يرضى عنها ضميرهم العلمى، والتى تستخرج لهم الأصول الفنية الحقيقية لهذه الأعمال التى تشمخ بأنوفها شموخا حقيقيا يضعها فى مصاف الأعمال الخالدة الكبيرة التى تمثل خيال أمة وتذوق شعب مفتوح يعيش فى المعنويات ويعرف قدرها ويقدر من يمثلها من الأعمال والشخصيات جميعا . . وقلت يومها فى حدة أننى لم أشهد فى دراستنا الأدبية إلا دراسات حول الملاحم فارسىها وهنديها ويونانيها ، أما سيرنا العربية التى اصطلحوا على تسميتها بالسير الشعبية ، وأما غير السير من روائع الفن العربى القاص، فلم تحظ حتى الآن بالتفات حقيقى من جمهرة الدارسين العرب الذين آثروا أن يكون مجال تفوقهم كلاما يلوكونه حول الألياناه

والشاهنامة ، ولا عجب فقد اتبعوا قول أوليرى ومن بعده
أحمد أمين ثم باقى الدارسين .

وناقشت المرحوم الدكتور محمد مندور صاحب كتاب النقد
المنهجي عند العرب الذى كان يعرف جيدا أن النقد الأدبى
العربى تأثر بأشياء كثيرة حالت دون ارساء قواعد متطورة تطابق
نقدنا الحديث الذى يقوم على الدراسات النفسية والتحليلية
والمذهبية ، والذى يعرف الكلاسيكية والرومانسية والواقعية
والرمزية والمقارنة وغيرها ، ومع هذا فقد كرس جزءا كبيرا من
جهده وعمره لدراسة هذا النقد العربى وأسهم بهذا — لا شك —
فى تطور نقدنا المعاصر الى جوار ما وفد علينا من دراسات
لتطور النقد ومذاهبه فى الغرب ، وذكرته بأن عدم وجود هذه
الاضافات التى يريدتها أصحاب التتعيد فى هذه الروايات الأولى
عند العرب لا يمنعنا من دراستها ، كما أنه لا يعنى أن العرب
لم يعرفوا القصة ، والا كان معنى عدم وجود المدارس النقدية
بمفهومها المعاصر عند العرب مانعا من دراسة النقد العربى
ودليلا على عدم معرفة العرب بالنقد مثلا . .

الأمر أننا نريد أن نثبت معرفة العرب لفن القصة لا بالقصة
التي يصدق عليها ما ذكره الأستاذ متى وسبقه اليه الدكتور
مندور عن اختلاط مفهوم القصة عند العرب وذلك لنحطم الخرافة
التي تزعم القصور فى العقلية العربية ولنحقق شيئا من الإنصاف
فى النظرة العلمية الى الأدب العربى ، أما جعل القضية هي

هل أثرت هذه الروايات العربية كفن في الفن القصصي العربي المعاصر أم لا ، ففضية معكوسة مغلوبة لأنها تشبه وضع العربية أمام الحصان ، فنحن بعد لم ندرس هذا الفن القصصي العربي دراسة نطمئن إليها وتكشف لنا عن أصولها وقواعدها من ناحية البناء ، وعن مضامينها الانسانية وقيمها الفنية من ناحية التعبير عن شعب متطور نام له كفاحه وله مثله وله تضايده وقيمه . ولا يمكن بحال أن نسأل عن العلاقة بين قصصنا المعاصر والقصص العربي المتوارث الا بعد أن نعرف هذا التراث معرفة جيدة . أما الجزم بأنه لم يكن ليؤثر بحال على إنتاجنا المعاصر فهو أولا رجم بالغيب وهو ثانيا فصل لجيل الكتاب المعاصرين عن أمنهم كلها وعن إنتاج هذه الأمة الذي يمثل عقليتها وعقائدها وموقعها من الحياة ..

ولذلك دعونا الدارسين الى بحث هذا التراث العربي الروائي بقدر من الاحترام له ولأصحابه ولجمهور الملتقين الذين تقبلوه وعاشوا في متعته عسى أن يجدوا في كنوزه ما يحطم خرافات كثيرة اعتبرت حقائق علمية مسلمة من باب الكسل والاهمال حيناً ، ومن باب النظرة المرتعشة الوقور حيناً آخر .

وللمرحوم الدكتور فؤاد حسنين كتاب اسمه « قصصنا الشعبي »
نشر عام ١٩٤٧ ، قال فيه في ص ٢٠ :

«حتى عهد قريب كانت القصة في أوروبا كما مهملاً لم يعن بها أديب ، ولم يلتفت إليها مؤرخ . لذلك ظلت الآداب الأوروبية

قرونا عديدة محرومة من القصة بعيدة عنها في الوقت الذي كان فيه الشرق قد سما بها وأوجد فيها المجاميع الكثيرة كآلف ليلة وليلة . فاذا كان الأمر كذلك فلا غرابة اذن اذا رأينا الشعوب الشرقية خاصة السامية منها — اعنى شعوب الجزيرة العربية وبعض اجزاء افريقيا — تستعين بالقصة في اغراضها الأدبية كما اتخذتها كتبنا الدينية وسيلة من وسائل الاقناع والدعاية .»

ولعل هذا الراى يوافق الى حد كبير اللوحة الذكية التى كتبها الأستاذ أحمد عباس صالح حين قال أن الغرب عرف الملحمة والدرامة ولكنه لم يعرف من الفنون القولية فن القصة بينما عرف العرب هذا الفن ولم يعرفوا الملحمة والدرامة . ويزيد على هذا الدكتور فؤاد حسنين فيقرر أن القصة قد انتقلت فى العصور الوسطى عن طريق السلم والحرب مع الحضارة الاسلامية الى الغرب فاستغلها القصاص والأدباء والمصورون استفلا عظيمًا . . وعدد الدكتور فؤاد حسنين مجاميع سن هذه القصص الشرقية الاسلامية ترجمت ودونت وظهرت فى ايطاليا ومانيا وروسيا والدانيمرك والنرويج ابتداء من عام ١٥٥٠ أى فى الفترة المواقبة لأول تباشير القصة الغربية كما قرر المرحوم الدكتور طه حسين مصححا ما قرره الدكتور محمد مندور .

فى كل هذا لم اكن ازعم أن العرب عرفوا الفرق بين الكونت والرومان والنوفيل وانما زعمت فقط أنهم عرفوا القصة كفن قولى وكتبوها وانهم تذوقوها ايضا على نطاق واسع وكبير ،

وأن ما عرفوه جدير بالدراسة والاحترام بصرف النظر عن مقررات ومصطلحات القرن التاسع عشر الذى تؤكد النظرة العلمية أنه ليس نهاية العالم .

وتصبح القضية أكثر وضوحا اذا لاحظنا ان ما كان يمكن ان نسميه قواعد القصة فى القرن التاسع عشر قد تغير تغيرا كاملا بل ولعله تحطم على أيدي الكثيرين من رواد القصة وكتابها فى نهايات القرن العشرين التى نشهدها هذه الأيام فلا يستطيع احد أن يقول أن منهج ديستوفيسكى فى الرواية هو نفسه منهج هوجو ، أو هو ذاته منهج كامى ، أو منهج كتاب الموجة الجديدة فى فرنسا وانجلترا مثلا . . ان الشكل يتغير بتغير الانسان المتلقى والانسان الكاتب ، وبتغير روح العصر ومتطلبات روح العصر ومتطلبات العصر . . والشكل الثابت أو الفورم الذى يصطلح عليه النقاد فى مرحلة أدبية سرعان ما يصبح معبرا الى شكل جديد يفرض نفسه على الفن الروائى والقصى ، فالمسألة ليست مسألة أننى زعمت أن موازين القصة القصيرة النقدية فى مطلع القرن تساوى أو تنطبق على قصص ألف ليلة وسيرة عنتره . وانما كل ما أردت اثباته هو أن هذا الفن من هذا الفن ، وأنهما صورتان لفن واحد . أحدهما ظهر فى بيئة اسلامية فاتخذ منهاجا بذاته ، والآخر معاصر ظهر فى بيئة صناعية متطورة فى أوروبا فاتخذ منهاجا مغايرا . . وأزعم ان فن اليوم القصصى يتخذ لنفسه منهاجا مغايرا ومخالفا تمام سواء على يد كتاب الغرب أو على يد الكتاب العرب المعاصرين

رما يتميز به العصر من تمزق وضياح وقضايا خلقتها التقدم
التكنولوجى الخيف .

اننا لا ننكر أننا عرفنا من الغرب الوانا من الانتاج القصصى
ساعدتنا على العبور الحضارى ، ولكننا ننكر أن كتابنا حين
كتبوا القصة انفصلوا عن تراثهم الذى تعلموه وعاشوا عليه من
طفولتهم ثم اطلعوا عليه فى رجولتهم وكهولتهم حين أنتجوا
القصة . وما محاولات فريد أبو حديد فى عنبرة والوعاء المرمرى
وما محاولات طه حسين نفسه فى احلام شهرزاد ومحاولات
الحكيم فى شهرزاد والسلطان الحائر . أهل الكهف وما محاولات
غيرهم فى كل حقبة من أحقاب نهضتنا المعاصرة الا الدليل على
الانتماء الوجدانى والفنى للقصص العربى عند كتاب اليوم .
أما الشكل فقد أخذه توفيق الحكيم مثلا ثم عاد فمزقه فى «المسرواية»
وفى غيرها من المحاولات .

ولست فى الحقيقة أدرى سر التحامل على مسلمة علمية
الا اذا كانت المسألة أننا مازلنا نعيش فى عقدة النقص التى
ولدها انفتاحنا الحضارى المفاجىء مع الغرب بعد عصور طويلة
من التخلف والانعزال . . ان خلاصنا من هذه العقدة لا يأتى
الا بالربط الجاد الدارس بين ما أخذنا من الغرب وبين ما كان
لدينا أصيلا وعميقا ، وليست هذه دعوة متحمسة ولكنها وبالذات
فى مجال الانتاج الأدبى دعوة ضرورة وهامة ، فمن لا أمس له
لا يغد له ، واذا كان ميخائيل نعيمة قد صرخ فى مطلع الحركة

الثقافية المعاصرة «فلنترجم»..فاننى اصرخ الآن «فلنقرأ تراثنا»..
فلنستوعبه ، فلندرسه ، فلنستلهمه ، ثم فلنضعه فى مكانه
الصحيح فى ركب الحضارة ..

وشكرا للأستاذ متى موسى و « للفصلية الإسلامية »
الصائرة عن المركز الثقافى الإسلامى بلندن أن اتاحا لى هذه
الفرصة لفتح النقاش فى موضوع هام ومتجدد ، وخاصة بعد
أن استجاب الكثيرون من دارسى الأدب العربى لدعوة كتاب (فى
الرواية العربية) خلال هذه السنوات وظهرت دراساتهم المتخصصة
عن السير الشعبية وغيرها من فنون الأدب الروائى العربى .
وظهرت دراسات مقارنة تحاول الربط بين بداية الفن القصصى
العربى وبين صور القصة العربية المعروفة فى نهايات القرن السادس
عشر والسابع عشر والتي ترجمت الى الغرب عن طريق الاحتكاك
الذى اوجدته الحروب الصليبية أو عن طريق الاندلس . فلعل
اعادة فتح هذا الموضوع ترسى حقائق جديدة نحتاجها فى فهم
علاقة حاضرنا بأمسنا وتمهد لنا طريق ابداع عربى مشارك فى
الفد للانتاج الفنى المعبر عن قيم العصر الحضارية ومشاكل
الانسان فى دنيا العصر .

فاروق خورشيد